شيخُنا و أستاذنا الفاضل إبراهيم قهيري حفظه الله وزاد الأمة به نفعا.

عرفته وأنا تلميذ صغير في الدخول المدرسي من سنة 1970 م - رجب 1390هـ بعد أن اجتزت المرحلة الابتدائية اي بعد نيلي لشهادة السنة السادسة(سيزيم) ، أيامها كان مديرا علينا بمتوسطة الذكور الجديدة (محمود بن عمر)، رجل مديد القامة مهيب يتميز بصوت صارم رصين دافئ من الوهلة الاولى تلحظ على محياه و في حركاته الجد والنشاط والصرامة الادارية، لفت انتباهي أنه لا يستخدم كلمة تلاميذ ، بل ينادينا بـ:يا أولاد. كان يقوم بالمناداة علينا في كل يوم اثنين من بداية الأسبوع حيث يجمع كل التلاميذ (ستة اقسام :الأولى متوسط و قسم واحد ثانية متوسط رقمها بالحروف الأبجدية ).

بعد المناداة يأمرنا بالانصراف قائلا : ارجعوا الاسبوع القادم لأن الأشغال بالمؤسسة لم تكتمل، حيث كانت جديدة و في طور الانجاز.

استمر الحال على هذه الوتيرة لبضعة ايام كنا في البدايات يغمرنا الفرح عندما نؤمر بالانصراف لسببين أولا لأننا دخلنا في تجربة جديدة مرحلة المتوسط و ثانيها تخوفنا من هذه التجربة و تغير نمط الدراسة و تغير المعلمين ، وكما تقول العرب: لكل داخل دهشة ولكل غريب وحشة ، لكننا سرعان ما بدأنا نألف المكان و سرعان ما بدأت تزول و كأن الأقدار قد جعلتنا أولى دفعات المؤسسة وأيدتنا بتأخر الدخول لنألف المكان والزمان

والأهم في ذلك كله أن نتعودنا على مدير من نمط جديد يعاملنا كأبِ (بحُنُوه وصرامته) ، فضلا عن ذلك يكلمنا باللغة العربية مستعملا قاموسا جديدا لم نعهده من قبل، قاموسا جديدا يلفت انتباهك ويشدك إليه شدا فلا يدعك إلا معجبا حائرا في قدرته الفذة على بناء جمل إبداعية كان في غالب الأحايين يرتجلها ...منها على سبيل المثال أن أحد التلاميذ دخل القسم متأخرا بعد أن انصرف التلاميذ إلى اقسامهم وكان يلهث تعبا وخوفا فإذا به يفاجأ بالسيد المدير قد سبقه إلى تسجيل الغياب و هو يهم بالانصراف من القسم فلما رآه بادره قائلا اين كنت يا ولد؟ فأجاب التلميذ : كنت في الخارج فعاجله قائلا: وأين جواز السفر، فانفجر الأستاذ والتلاميذ بالضحك فكانت مزحة خفف بها المدير الأب الحاني من روع التلميذ وسمح له بدخول القسم على أن لا يعاود الكرة . ولما كان التلاميذ يتثاقلون في الدخول إلى الأقسام كان ينادي على الواحد منهم أسرع يا ثقيـــــــل(بمد الياء)... وعبارات كثيرة صارت مضرب الأمثال بين جيلنا لسنوات طويلة نتذكرها. ولم أسمع في حياتي مديرا أجمع التلاميذ على احترامه و حبه والخوف منه مثلما أجمعوا على الشيخ الفاضل ابراهيم قهيري، و أرجع ذلك إلى أنه كان يتمتع بحاسة سادسة تربوية وخبرة كبيرة بالنفوس لأنه كان مرب من طراز خاص مبدع غير مقلد أب ينصح و يؤدب و يثقف زرع فينا حب اللغة العربية إذ كان يحادثنا بها في كل مكان في الساحة في الأقسام و حتى في الشارع لما كنا نلتقيه أو في المساجد بعد ذلك، كانت عينه علينا في كل مكان نكون فيه و كان يهتم بنا تربويا و علميا و اجتماعيا فلا يغفل عنا ،بل يمد لنا يد المساعدة وفي كثير من الأحيان كان يسائلنا عن دروسنا و ظروفنا... و مما يدل على اهتمامه بنا و متابعته الدقيقة لنا ، أنه في يوم من الأيام زارنا في الأقسام وأبلغنا أن البلدية قد افتتحت مكتبة جديدة في وسط المدينة (رحبة الزيتون) و أنه يتوجب علينا المواظبة على المطالعة فيها ، وفوجئت به و جمهرة من اساتذتنا قد سبقونا إلى المكتبة .... وذات يوم وأنا منكب على مطالعة أحد الكتب إذا به يدور علينا واحدا واحدا يقلب الكتب ليرى العناوين ، ولما كنت أقرأ كتابا ضخما لجرجي زيدان (عروس فرغانة) أو ما كان يروج لها بروايات تاريخ الاسلام ،و كنت في سن صغيرة (12سنة) فإنني ترددت قليلا حياء منه أن يرى ما أقرأ لكن إصراره على تقليب الكتاب جعلني أنصاع ، وانتظرت ردة فعله وكنت أنتظر منه تقريعا لكنه بأبوته الحانية تفرس في وجهي مليا ثم علت شفتيه نصف ابتسامة.

و من الامور التي لا أنساها ابدا وكانت من إبداعاته أنه كان يفتتح الدخول المدرسي يوميا بالقرآن الكريم يستعمل تسجيلات للشيخ الراحل صوت السماء عبد الباسط محمد عبد الصمد و كم كنت استمتع بتلك التلاوات ونزول الرحمات ، جعل الله ذلك في ميزان حسانه فكانت سنة حسنة تعلمناها منه وعلى ما علمت لم يسبقه إليها أحد فيما علمته .. ولم يجرؤ على اتباعها من بعده أحد . وقد وفقنا الله تعالي لإحياء هذه السنة بالثانوية التي أشرف عليها منذ 04 سنوات ، ويحرص على الاذاعة القرآنية بالثانوية أحد الشبان الصالحين.

و مما يلفت الانتباه ويزيدك إعجابا بالرجل أنه لفرط اهتمامه بنا كان يَعرفُنا بأسمائنا و ألقابنا واحدا واحدا رغم العدد الكبير للتلاميذ في المؤسسة بل إلى غاية الساعة بعد مرور أكثر من أربعين سنة مذ عرفناه لا يزال يتذكر أسماءنا واحدا واحدا.

عرفناه ببديهته الحاضرة وذكائه الحاد وتضلعه باللغة العربية و حتى الفرنسية، عرفناه بصراحته ،لا يخشى في الله لومة لائم ،عرفناه بتواضعه فكان لنا دائما قدورة في روحتنا و رجوعنا ، وأذكر أن تواضعه الذي تميز به وإنكاره لذاته منعاه من أن يتكلم عن نفسه وجهوده في التربية والتعليم في الصحافة عندما دعوته(في التسعينيات) لحوار على صفحات إحدى الجرائد الاسبوعية التي كنت أكتب فيها مقالات حول علم النفس(بنوع من الأسلمة) فضلا على أنني عملت بها كمراسل صحفي من ولاية غرداية و كانت إدارة الصحيفة قد طلبت مني كتابة مقالات و حوارات تعريفا بعلماء المنطقة والمناطق المجاورة ، فبدأت بالشيخ عمر الساسي القراري رحمه الله خريج الزيتونة وعنونت المقال بـ: "الشيخ عمر يطير بجناحين" و كان للشيخ علي العلمي "جغاب" رحمه الله قصب السبق في تزويدي بمعلومات رصينة و صادقة حول الرجل، ثم قمت بحوار مطول مع الشيخ عدون رحمه الله أحد رموز الاباضية و رئيس "مجلس العزابة" لجميع قرى وادي ميزاب ، الذي استضافني في بيته و كان الحوار مسجلا بالصوت والصورة(مدة ساعتين) ، ثم أردت التعريج على مدينة العلم والعلماء الأغواط لأحاور شيخَنا الحاج ابراهيم قهيري في مسيرته التربوية لكن تواضعه وإنكاره للذات حالا دون ذلك رغم إلحاحي عليه مرتين.

أعلم أنني مهما تكلمت عن أستاذنا وشيخنا إبراهيم قهيري فإنني لن أوفيه حقه من التكريم والاعتراف وبالفضل والتبجيل، لأن مناقبه تعجز أن تحصيها ذاكرتي أو أن توفيها لغتي أو أن يدبجها يراعي.

استسمح الشيخ الفاضل في ذلك كله ,وأسأله أن يعفو عن زلات قلمي و تعثر عبارتي وقصورها في أداء حق واجب أوجبه تعالى علينا عندما قال: وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(البقرة 237).

وأصارحكم أن إعجابي وانبهاري في صغري بشخصية استاذنا جعلاني أكتب عنه قصة أصف فيها حركاته و عبارته وكلامه وتقريعاته لكن لأسف لأنني لم أكن أجيد التوثيق ضاع الأصل وبقي في الذاكرة منه النزر القليل ذكرت بعضا منه في هذه المقالة المتواضعة. حفظ الله الشيخ .

الفقير إلى الله تعالى جمال بن السايح مدير ثانوية محمد بوسبسي- الأغواط- ‏26‏-05‏-2014